قضايا النقد ا؟لأدبي في كتاب الكامل للمبرد

د/ بن طرية عمر
جامعة قاصدي مرباح ورقلة (الجزائر)

Abstract:

The aim of this study is to shed light on the language of the most famous linguists, shares unrivaled contribution in pushing the wheel lessons critiques in the third century.

One of the objectives of this study detected Abu Abbas Mohammed bin yazeed AALMBRD effort, and to highlight the impact on critics system.

The study showed that AALMBRD was a culture critiques deep, sound and vision, through kitabah alkamil fi alllughat wal'adibbi, remained carved on the pages of the old lesson critiques.

Keywords: AALMBRD, criticism, critics, culture critiques, kitabah alkamil fi alllughat wal'adabb.

Résumé:

Le but de cette étude est de faire la lumière sur la langue des plus célèbres linguistes les, partage la contribution inégalée à pousser les leçons de roue critiques au troisième siècle.

L'un des objectifs de cette étude détectée Abu Abbas Mohammed bin Yazeed effort AALMBRD, et pour mettre en évidence l'impact sur le système de critiques.

L'étude a montré que AALMBRD était une culture critique profonde, le son et la vision, par kitabah alkamil fi alllughat wal'adibbi, est resté gravé sur les pages des anciennes critiques de leçon.

Mots-clés: AALMBRD, critiques, critiques, critiques de culture, kitabah alkamil fi alllughat wal'adabb.

ملخص:

الهدف من هذه الدراسة هو تسليط الأضواء على لغوي من أشهر علماء اللغة، أسهم إسهاما منقطع النظير في دفع عجلة الدروس النقدية في القرن الثالث الهجري. وكان من أهداف هذه الدراسة الكشف عن جهد أبي العباس محمد بن يزيد المبـــرد، وإبراز أثره في منظومة النقاد. وأظهرت الدراسة أن المبرد كان ذا ثقافة نقدية عميقة، ورؤى سليمة ، من خلال كتابه الكامل في اللغة والأدب , بقيت منحوتة على صفحات الدرس النقدي القديم.

الكلمات المفتاحية : المبرد ، النقد ، النقاد ، ثقافة نقدية ، كتاب الكامل في اللغة والأدب

تقديم :

المبرد - ولاشك - من القمم الشوامخ في اللغة و النحو و الأدب في القرن ا لثالث الهجري(التاسع الميلادي) و أحد لجهابذة المشهود لهم بالنبوغ و التضلع في المسائل اللغوية والنحوية، كما له إسهامات عميقة في الحقـــل النقـــدي و الأدبي.

دلت رؤيته النقدية على ذوق رفيع لفنون القول، وطـــرائق الكـــلام مـــن جهة، ونظرات نقدية اتســـمت بـــروح الموضوعية التي أســـفرت عن ثبوت قدم ورسوخها من جهة أخرى، ومن ثمة يقف المبرد علـــى عتبـــات الـــــتاريخ عـــلما شامخا يطاول عنان السماء، فيض من الثقافة سنامها اللغة، نحوا وصرفا، ينضاف إلى هذا، أن الرجـــل يكتنـــز أخبارا حفظا ورواية، ويتدفق طرفا و ملحا.

ويكفي الكامل فخرا أن ابن خلدون اعتبره واحدا من أربعة كتب كبار لا غنى لطالب المعرفة والثقافة عن قراءتها، إذ يقول:" وسمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفن أربعة دواوين، وهي: أدب الكاتب لابن قتيبة، وكتاب الكامل للمبرد، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ، وكتاب الآمالي لأبي علي القالي، وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع عنها" [1]

إن أغلب كتب النقد حين تتعرض إلى المبرد تخرجه من زمرة النقاد، وتمر بكتابه مرور الكرام، مرورا عابرا دون أن تقف عنده وقفة طويلة متأنية واضعة في الحسبان أن الكتاب كتاب لغة و نحو وشرح للمفردات ليس إلا، و أن صاحبه رجل لغة ونحو فقط.لكن الأمر غير ذلك، فالمبرد تميز برؤيته النقدية، ونظرته الثاقبة في هذا المجال من خلال سفره الكامل، وأفاد منه الدارسون من بعد في تآليفهم و بحوثهم أيما إفادة.

و المبرد في كتاب الكامل له مقاييس و موازين نقدية مبثوثة في تضاعيف الكتاب، متناثرة هنا وهناك، وليس غريبا على من كانت ثقافته موسوعية، متشعبة الفروع، متنوعة الفنون، أن تكون آراءه هكذا.

إن آراء المبرد النقدية بعد جمعها – و لاريب- تشكل أساسا نقديا يقوم عليه النقد بمفهوم المبرد.

ومن باب الإنصاف يمكن القول:إن المبرد أسهم بنظراته الجزئية القيمة في إثراء الحقل النقدي ،ودفع عجلة الأدب إلى الأمام ،ويكفيه فخرا أنه شارك في أغلب القضايا النقدية و الأدبية التي كانت سائدة في عصره واستطاع أن يدلي بدلوه ، ويقول مقالته فيها، مقلدا تارة ومجددا تارة أخرى ، مبدعا مستنبطا آراء من خلال نظراته الثاقبة و ذوقه الفني.

قبل الخوض في أهم القضايا النقدية المبثوثة بين دفتي سفر الكامل أجد نفسي أمام سؤال يفرض نفسه وفحواه، هل كان المبرد ناقدا ؟

إن أغلب كتب النقد حين تتعرض إلى المبرد تخرجه من زمرة النقاد، وتمر بكتابه مرور الكرام، مرورا عابرا دون أن تقف عنده وقفة طويلة متأنية واضعة في الحسبان أن الكتاب كتاب لغة و نحو وشرح للمفردات ليس إلا، و أن صاحبه رجل لغة ونحو فقط.لكن الأمر غير ذلك، فالمبرد تميز برؤيته النقدية، ونظرته الثاقبة في هذا المجال من خلال سفره الكامل، وأفاد منه الدارسون من بعد في تآليفهم و بحوثهم أيما إفادة.

و المبرد في كتاب الكامل له مقاييس و موازين نقدية مبثوثة في تضاعيف الكتاب، متناثرة هنا وهناك، وليس غريبا على من كانت ثقافته موسوعية، متشعبة الفروع، متنوعة الفنون، أن تكون آراءه هكذا.

إن آراء المبرد النقدية بعد جمعها – و لاريب- تشكل أساسا نقديا يقوم عليه النقد بمفهوم المبرد.

ومن باب الإنصاف يمكن القول:إن المبرد أسهم بنظراته الجزئية القيمة في إثراء الحقل النقدي ،ودفع عجلة الأدب إلى الأمام ،ويكفيه فخرا أنه شارك في أغلب القضايا النقدية و الأدبية التي كانت سائدة في عصره ،واستطاع أن يدلي بدلوه ، ويقول مقالته فيها، مقلدا تارة ومجددا تارة أخرى ، مبدعا مستنبطا آراء من خلال نظراته الثاقبة و ذوقه الفني.

القضايا النقدية عند المبرد :

أ - **القديم والحديث:** الخصومة بين القديم و الحديث قائمة في كل عصر و زمان، وفي كل أدب و فن، فهي مسألة تتوقف عليها حياة الأمم والشعوب، وكلما أثيرت هذه القضية وقع الخلاف واحتدام الصراع، وتباينت الآراء، وتفرق الدارسون طوائف وشيعا، فمنهم متعصب للقديم عصبية عمياء، ومنهم منتصر للجديد لا يرى غيره، ومنهم من أمسك العصا من وسطها، لا يتعصب لقديم، و لا ينتصر لحديث، و إنما محكه في ذلك الجودة و الحذق في الصنعة بعيدا عن العصر و الزمان. ومنه يتجلى بوضوح أن مشكلة القديم و الحديث أفرزت ثلاث فئات:

أ- فئة تتعصب للقديم.

ب- فئة تنتصـــر للجديد

ج- فئة لا تتعصب للقديم، ولا تنتصر للجديد.

ومن هنا يمكن طرح الإشكالات الآتية:

- ما هي الأسباب يا ترى التي دفعت إلى نشوب هذه الخصومة؟
- وما نتائجها على الأدب و الإبداع؟
- وما موقف المبرد من الصراع بين القديم والحديث؟
- وما الجديد عنده؟

تكاد مصادر النقد و الأدب تتفق على أن مدار الخصومة بين القديم والحديث مرده إلى ظهور التيار الجديد لـــدى المحدثين من أمـــثال: (بشـــار بن برد، وأبي نواس، وأبي تمام)، و غيرهم كثر.

هذا التيار المجدد الذي أحدث انقلابا جذريا، وقاد ثورة عارمة على بناء القصـــيدة العربية القديمة، و عمودهـــا الشعري، مخالفا بذلك سنة القدماء في طـــريقة نظم القصيدة، عازفا عن تلك القيود التي ألزم الشاعر القديم نفسه بها، و اعتبر الخروج عنها من قبيل الردة و الكفر إن صح التعبير.

الفئـــة المتعصبـــة للقديـــم: كان لفيف من الرواة و اللغويين ينظر إلى القديم بعين التقديس و الإجلال، و يتعصبون له تعصبا أعمى، ولا يقبلون بأي نغمـــة تدعو إلى التجـــديد و الابتكار، ويرون كل خـــروج عـــن القـــديم مـــن ســـقط المتاع.حـــتى بلغ بهـــم الأمر الخروج عن الجادة، و ركوب الشطط في تشيعهـــم للقديـــم، وكان أبو عمـــرو بن العلاء رأسا من رؤوس المتعصبين للقديم، الرافضين لكل جديد.

يقول عن الأخطل :" لو أدرك يوما واحدا من الجـــاهلية ما قدمت عليه أحدا" [2] وهذا كلام في منتهى الغرابة و الشذوذ ،والبعد عن المنطق. ويذهب أبو عمرو بن العلاء في مذهبه هذا إلى التحيز الصارخ للقديم،يجاهر به نهارا جهارا ،معلنا عن موقفه من المحدثين فيجيب حين سئل عن مذهب المحدثين فقال :" كل على غيرهم إن قالوا حسنا فقد ســـبقوا إليـــه ،وإن قالوا قبيحا فمن عندهم "[3]

وليته وقف عند هذه العصبية المقيتة التي لا تدفع عـــجلة الإبداع قدما إلى الأمام بل تزيدها ردة وتخلفا وتقهقـــرا ،فيقول عن الفرزدق وجرير و أشباههما ،على الرغم من تمكنهم من ناصية القول ،وحذقهم بصناعة الشعـــر، والإجادة فيه، فعصبيته العمياء حالت دون إنصافهم، فيعلنها صريحة:" لـــقد كثر هذا المحدث وحسن حتى لقد هممت بروايته"[4]

و بلغ تشيع اللغويين والرواة القدامى للقديم حتى ذكـــر الأصبهاني رواية عن حماد الأرقط قال :" لقيني منـــاذر بمكة فأنشدني قصيدته.

" كل حي لاقي الحمام فمود"

ثم قال لي أقرئ أبا عبيدة السلام ،وقل له يقول لك ابن مناذر اتق الله و احكم بين شعري وشعر عدي بن يزيـــد ،ولا تقل ذاك جاهلي ،وهذا إسلامي ،وذاك قديم ،وهذا محدث فتحكم بين العصرين ،ولكن احكـــم بـــين الشـــعرين ودع العصبية"[5]

ما يستشف من هذه الرواية تعصب أبي عبيدة للقديم وتفضيله عما سواه أيما مفاضلة ،ليس اعتمادا على الجودة و الإبداع و الحذق في الصنعة،و إنما استنادا إلى القدم في العصر ،ألم يقل ابن مناذر لأبي عبيدة :" لا تقل ذاك جاهـــلي ،وهذا إسلامي ،وذاك قديم ،وهذا محدث فتحكم بين العصرين ،ليس بمـــعقول بمكان أن تكون المفاضلة بـــين الشـــعراء محكها قدم العصر أو جدته،وإنما المحك الصحـــيح : الجودة و البراعة و الإبداع ،فالتعصب للقديم على حساب الجديـــد داء عضال مثله كل من عمرو بن أبي العلاء، والأصمعي، وأبي عبيدة،و ابن الأعرابي وغيرهم كثر.

و هذا ابن الأعرابي يؤكد ما ذهبت إليه، فيقول:" لما أنشدني رجل قصيدة لأبي نواس أحسن فيها وأجاد، فسكت ثم قال لي الرجل: أما هذا من أحسن الشعر؟ فقال ابن الأعرابي بلى، ولكن القديم أحب إلي "[6]

ألا ترى أن ابن الأعرابي يصدر عن عصبية عمياء، رغم أن ذوقه الفني والفطري يقران بجودة شعر أبي نواس، إلا أنه يأبى إلا أن ينتصر للقديم دون غيره، وهاهو يبرز قمة العصبية للقديم حين تحدث عن أشعار المحدثين، فقال:"إنما أشعار هؤلاء المحدثين – مثل أبي نواس وغيره – مثل الريحان يشم يوما ويذوي فيرمى به، وأشعار القدماء مثل المسك والعنبر، كلما حركته ازداد طيبا "[7]

ونظيره قول الأصمعي في بشار بن برد ينبي عن عصبية، وتشيع للقديم، وتحزب، قال:" بشار خاتمة الشعراء، والله لولا أيامه تأخرت لفضلته على كثير منهم"[8]

لاشك أن هذه الآراء و غيرها لا تحتكم إلى أدنى الموازين النقدية البناءة، فهي بعيدة كل البعد عن النقد الموضوعي المنطقي، كأنها لا تصدر عن علماء لهم باعهم ومكانتهم الأدبية واللغوية.

إن هذه الآراء تنم عن تعصب لا يتماشى مع سنن الحياة التي تخضع للتجدد والتطور من زمن إلى آخر.

الفئة المنتصرة للجديد: بعد ما تطرقنا إلى آراء بعض المتعصبين إلى القديم نتجه الآن شطر الفئة الثانية التي تنتصر للجديد انتصارا منقطع النظير، رافضة لكل قديم، ساخرة من قوالبه وطرائقه،ووصل بهم الرفض إلى حد التجريح، وكان من أبرز المنتصرين للجديد الصولي الذي ظهر انتصاره للحديث في كتابه أخبار أبي تمام الذي أعرب فيه على مدى تعصبه لشعر أبي تمام ،وتقديمه على الشعراء.

ومنهم أيضا أبو نواس، وأبو تمام وغيرهم كثير.فهؤلاء تمردوا جميعا على النهج القديم، وخالفوا طرائقه، و اختطوا لأنفسهم منهجا جديدا في الإبداع، وراحوا يوظفون البديع إلى حد المغالاة.

وثورة أبي نواس على الشعر القديم معروفة لا تخفى على أحد، أليس هو القائل:

عاج الشقي على دار يسائلها * و عجت أسأل عن خمارة البلد [9]

الفئة المعتدلة: هذه الفئة تقف موقفا وسطا لا تتعصب للقديم ،ولا تنتصر للجديد ،وإنما تنصف كلا من خلال إبداعه ،ومدى جودته،وحذقه بالصنعة .ولعل النقاد الأوائل الذين وقفوا من القديم و الحديث موقفا وسطا الجاحظ لم يتعصب للقديم ،ولم يحاب حديثا ،وإنما احتكم إلى الجودة و الحذق في الصنعة ،والإجادة في السبك ،ولذلك تجده ينصف أبا نواس ويمتدحه بالإجادة و الحذق والإبداع فيقول :"وإن تأملت شعره فضلته،إلا أن تعترض عليك فيه العصبية ،أو ترى أن أهل البدو أبدا أشعر ،وأن المولدين لا يقاربونهم في شيء ،فإن اعترض هذا الباب عليك فإنك لا تبصر الحق من الباطل ما دمت مغلوبا "[10]

ومن هنا أحدث الجاحظ بموقفه هذا ثورة قلب بها المفاهيم ،واحتذى بها من جاء بعده ،وسار على نهجه ،منهم ابن قتيبة الذي تلقف نظرية الجاحظ ،وراح يشرحها ، ويعللها و يدققها مبينا عن رأيه صراحة من قضية القديم و الحديث ،وعلة استحسانه لشعر على شعر ،ومفاضلته لشاعر على آخر فيقول :" ولم أسلك فيما ذكرته من شعر كل شاعر على آخر مختارا له ،سبيل من قلد ،أو استحسن باستحسان غيره ،ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه ،وإلى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره [11]

ثم يوضح المحك الذي انتهجه في تصنيف الشعراء و الحكم على إبداعاتهم بالاستحسان و الإجادة ،أو الرداءة و السخافة ،فيقول :" بل نظرت بعين العدل إلى الفريقين ،و أعطيت كلا حقه ، ووفرت عليه حظه "[12]

و لم يقف ابن قتيبة عند هذا الحد، ولكن استرسل في الحديث يقيم الحــــجة على وجهة نظره فيقول:"ولم يقصر الله العلم و الشعر والبلاغة على زمـــن دون زمن، و لا خص به قوما دون قوم، بل جعل الله ذلك مشتركا مقسوما بين عباده في كل دهر، وجعل كل قديم حديثا في عصره "[13]

بعد هذا التباين في الآراء و انقسام النقاد حول القضية فرقا وشيعا، بيـــن متعصب للقــديم، ومناصـــر للجديــد، وواقف وسطا بينهما.

فما موقف المبرد ؟

و ما الجديد عنده؟

إن نظرة المبرد النقدية اتجاه الصراع بين القديم و الحديث تبدو نظرة موضوعية تتبني علـــى محـــك الجـــودة و الإبداع في الشعر،ولا تتكئ على محك القدم أوالحداثة، ومن ثمة يرى أن المفاضلة بين الشعراء لا تقوم أساسا على قدم عهد أو جـــدته ، وإنما تقوم على أساس الأسس الفنية القائمة في القصيدة ،فهو ينطلق من العـــمـــل الإبداعي (الـــنص) بعيدا عن صاحبه ،أو عصره الذي وجد فيه ،لذّلك قــضى أنه : " ليس لقدم العهد يفضل القائـــل ،ولا لحـــدثان عهـــد يهتضم المصيب ،ولكن يعطي كلا ما يستحق "[14]

ثم راح يستدل على رأيه هذا مفضلا قول عمارة على قرب عهده:

تبحثتم سخطي فغير بحثكم * نخيلة* نفس كان نصحا ضمــــيرها
و لن يلبث التخشين* نفسا كريمة * عريكتها* أن يستمر مريرها*
وما النفس إلا نطــفة* بقــــرارة * إذا لم تكدر كان صفوا غديرها

فهذا كلام واضح و قول عذب [15]

و كذلك قوله أيضا :

بني دارم إن يفن عمري فقد مضى * حياتي لكم مني ثناء مخلد
بدأتم فأحسنتم فأثنيت جاهدا* و إن عدتم أثنيت و العود أحمد [16]

و لكن السؤال الذي يطرح نفسه إلى أي مدى طبق المبرد هذه النظرية ؟

يرى البعض أن المبرد أثناء اختياره للنماذج الشعرية التي يدعم بها نظـــريته إنما كان ينتخب أشـــعارا شـــبيهة بالشعر الجاهلي، ولذّلك قيل، إنه عاب شعر أبـــي تمام و تعصب ضده، بينما فضل شعر البحتري و استجاده .لمـــاذا؟ قيل :لأن طريقة أبي تمام موغلة في الغموض و الغرابة بعيدة عن عمود الشعر ،وأما البحتــــري فهـــو يســـير علـــى شرعة القدامى و يتمسك بعمودهم الشعري ،هذا من جهة ،وأن شـــعره يوافق ذوق المبرد ،ذوقه الذي يجنح إلى السهولة و الرقة من جهة أخـــرى،وأن المبرد بصري ،ومن طبيعة البصريين الميل إلى الجزالة والمتانة من جهـــة ثالثة .

إن القول بهذا الرأي و تسويغه بميل المبرد إلى طائفة من الشعراء و على رأسهم البحتري، لأن البحتري يمتاز بالسهولة و رقة العبارة، في نظري إن مـــــثل هذا القول لا يمكن اعتماده حجة على أن المبرد يفضـــل القـــديم علـــى الحديث أو يتعصب للقديم، والقول أيضا بأن المبرد بصري المذهب، ومن جبلة البصـــرين المـــــيل إلـــى الجزالـــة و الرصانة و المتانة يدفع المبرد إلى التحيز للقديم والتعـــصـــب له.لما؟ لا نقول :إن المبرد على الرغم من أنه ســـليل ثقافة لغوية نحوية عـــمـــدتـــها النحو البصري الممتد عبر الزمن – قديمه وحديثه – إلا أن هذا الانتساب لم يمنعـــه من تنكب الصراط السوي ،والحيد عن جادة الصواب ،بقدر ما جعــــله يـــنـــظر إلى الصراع بين القديم و الحديث بعـــين الإنصاف والعدل .

و قد يقول قائل:إن المبرد يلتقي مع ابن قتيبة حين قال:" و لا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه، وإلى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره "[17]

فعلا لهما نفس الرأي نظريا، ولكن من حيث التطبيق اختلـــــفا الرجلان،

فابن قتيبة سرعان ما تخلى عن موقفه، وراح ينتصر للقديم دون شعور منه فقال:" وليس لمتــأخر الشـــعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين في هذه الأقــسام فيقف على منزل عامر، أو يبكي عند مشيد البنيان، لأن المتقدمين وقفــوا على المنزل الداثر و الرسم العافي، أو يرحل على حمار أو بغل و يصفهما، لأن المتقدمين رحلوا على الناقـــة والبعيــر ...."[18]

أما المبرد فقد استطاع أن يحافظ على موقفه الذي ذهب إليه ،وجعل من الجودة و الحذق فـــي الصـــنعة محكـــا للمفاضلة بين الشعراء.

ومن هنا أجد أن المبرد فوت الفرصة على أولئك اللغويين المتشيعين المتعصبين للقديم ،مهما يكن ،معتبرين كـــل من خرج على نهجهم و سننهم قد أحدث ردة ، أو ارتكب جرما لا يغتفر .

والحقيقة التي لا مناص منها أن المبرد استطاع بنضجه العقلي ،وذوقه الفني أن يتخلص من تلك النظــرة التـــي سادت عند القدامى ،وشـــــذ عن الطوق ،وكان أكثر موضوعية ، وإنصافا وإحقاقا للحق والوقوف على جادة الصـــواب ،فتراه لم يتعصب للقديم ،كما فعل أبو عمرو بن العلاء ،والأصمعي ،و أبو عبيدة، وغيرهم ،ولم ينتصر للحديث ،كمـــا فعل أبو نواس ،وتلميذه الصولي ،و أبو تـــمام وغيرهم ،بل إن الرجل جعل القسمة بين القديم والحديث إجادة و إبـــداعا من جهة ، و احتكاما للنص من جهة أخرى .

مما تقدم يمكن بلورة مكمن الجدة في قضية القديم والحديث لدى المبرد في النقاط التالية :

1- المحك عنده الجودة و الإبداع

2- الاحتكام إلى النص

3- عامل القـــدم و الحداثة لا يعتبر مقياسا للمفاضلة بين الشعراء .

4- الدعوة إلى الإنصاف وإحقاق الحق للمبدع مهما كان عصره و زمانه.

ألا يمكن من خلال هـــذه الآراء المتباينة حول القديم والحديث الوصول إلى رأي رابع؟وهو الجمع بـــين القـــديم والحديث ،بمعنى أن يكون القديم مطية ،أو جسرا إلى التجديد و الابتكار ،والعمل على إيجاد همزة وصل بين القـــديم و الحديث ،والتعايش السلمي فيما بينهما ،لا إفراط ولا تفريط بمعنى لا عصبية للقديم ولا نصرة للحديث، وإنما عقد صـــلة بينهما لأن كل قديم كان حديثا في زمانه ،وكل حديث سيصير قديما إذا تجاوز زمانه،و تلك ســـــنة الله في الخلق ،وفي هذا السياق يقول الدكتور طه حسين :" فنحن بحكم البقاء و حاجتنا إليه،مضطرون إلى أن نصل بين أمس واليوم والغـــد ،مضطرون على أن نصل بين القديم والجديد "[19]

ثم يرى أن هذا الخلاف شرعة لا بد منها ،فيقول :" إذن فالخلاف بين القديم و الحديث أصل من أصول الحيـــاة :فيشتد حتى يتم انتصار الجديد ،فيصبح الجديد قديما ،ويظهر جديد آخر يحاربه"[20]

و الحقيقة إن معضلة الصراع بين القديم والحديث أمر حتمي، وظاهـــــرة تطـــفو وتتجدد على مـــر العصـــور والأمصار، لأنها قضية حتمية لدفع عجلة الإبداع و الابتكار، ولأن مقولة ما ترك الأول للأخر شيئا مدعاة للركـــود و الجمود و الفناء.

إن الشاعر المجيد مجيد في كل زمان ومكان، لأن الجودة في الشعـــــر لا تـــــتقيد لا بالزمـــان ولا بالمكـــان، وإنما تتبلور من خلال كفاءة الشاعر و مدى تـــــغلغله في أغوار تجربته الشعرية، والذوبان فيها، مسفرا عنها بكل مـــا يمـــــلك مـــن أدوات إبداعية فنية.

ومن هنا صدق الجاحظ حين يقول:" إذا سمعت الرجل يقول ما ترك الأول للأخر شيئا، فاعلم أنه مـــا يريـــد إن يفلح"[21]

ب - ثنائيــــة اللفــظ والمعنـــى : عرفت ثنائية اللفظ والمعنى في جميع الآداب الإنسانية صراعا وجدلا حامي الوطيس ،ومكث الدارسون ردحا من الزمن ،وهم في مد وجزر حول هذه القضية الشائكة و الخطيرة في آن واحـــد؛لأنها تمثـــل ركيزة رئيسة من ركائز النقد في شتى لغات العالم قديما وحديثا.

إن قضية اللفظ والمعنى في الأدب العربي لم تكن وليدة الأمس القريب ،وإنما ترجع جذورها إلى قضية أخرى لا تقل خطورة عنها ،وهي قضية الإعجاز في القرآن ،لأن المشتغلين بمسائل الإعجاز طرحوا إشكالية مفادها :هل القـــرآن معجز بلفظه أم بمعناه ؟ثم تحول هذا التساؤل إلى الشعر .

والمتمعن في ثنائية اللفظ والمعنى يجد أن الدارسين انقسموا حولها فـــرقا وشيعا ، فمنهم مـــن انتصـــر للفـــظ و فريق أخر تحزب للمعنى ، وصنف ثالث نظر نظرة توفيقية ،فقال بأن اللفظ خادم للمعنى ،و لا يمكن للفـــظ أن يقـــوم بوحـــده ولا المعنى لوحده إلا إذا ائتلفا فيما بينهما ،ومن ثمة يرى هذا الصـــنف الأخيـــر أن اللفـــظ والمعنـــى شـــيئان متلازمان.

ومن هنا عنت لي جملة من التساؤلات فحواها:

أ- لماذا نالت قضية اللفظ والمعنى هذه الأهمية ؟

ب- وأي الفرق أرجح رأيا؟

و الجواب لاشك و أن قضية اللفظ والمعنى نالت كل هذه الأهمية في الدرس النقدي العربي ،لأنها تعتبر محكـــا للجودة والرداءة في الحكم على الأعمال الإبداعية ،كما أنها تشكل أساسا من أسس العمل الأدبي هذا من جهـــة ،وتعـــد العمود الفقري الذي قامت عليه فكرة الإعجاز في القرآن مـــن جهة أخرى .

لهذه الأسباب وغيرها حظيت هذه القضية بالاهتمام ،وكانت مدار الخلاف والاختلاف بين الدارسين.

و اعتبر الدارسون الجاحظ من النقاد الأوائل الذين تصدوا لقضية اللـــفظ والمعنى،ومحصوها ،و أدلـــوا بـــدلوهم بين الدلاء ،فما رأي الجاحظ في هذه القضية ؟وما مذهبه ؟

يقول الجاحظ موضحا رأيه في ثنائية اللفظ والمعنى :"والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربـــي والبدوي والقروي والمدني ،وإنما الشأن في إقامة الوزن و تخير اللفظ ،و سهولة المخرج ، وكثرة الماء وفـــي صـــحة الطـــبع وجودة

السبك ، فإن الشعر صناعة وضرب من النسج و جنس من التصوير"[22]

و لقد ذهب الشراح والدارسون مذاهب مختلفة ومتباينة حول ما قاله الجاحظ ،و أغلـــبهم رأى أن الجـــاحظ مـــن أنصار اللفظ ،وأن مذهبه تفضيل اللفظ على المعنى ، لأنه يقول بنظرية :"المعاني مطروحة في الطريق" أي بمعنـــى أن المعاني مشتركة بين جميع الناس ،فهي مشاع بين العجمي والعربي والبدوي والقروي والمدني،فهذا أمر لا خلاف فيـــه .لكن الجاحظ لم يقف عند هذا الحد ،و إنما راح يوضح رأيه مسترسلا حين قال :"...وجودة السبك ،فإن الشعر صـــناعة وضرب من النسج ،وجنس من التصوير" ومن ثمة يتبين أن الجاحظ يدعو إلى التأليف بين اللفظ والمعنـــى ويـــرى أن اللفظ لا يجمل والمعنى لا يجمل ما لم يكن بينهما عامل السبك و النسج ثم يوضح أن الشعر صناعة ،والصـــناعة لابـــد وأنها تحتاج إلى مهارة ،و إلى الحذق

و إلى التنسيق ،والربط بين اللفظ والمعنى ،يتخللهماجانب من الخيال ،والذي عبر عنـــه بقولـــه :"وجـــنس مـــن التصوير".

ومن هنا يتجلى بوضوح أن الجاحظ حين قال بنظرية المعاني مطروحة في الطريق ،فإنه لم يقل إطلاقا بفصل اللفظ عن المعنى ،ولم يقل بفضل اللفظ عن المعنى ، بل قال بهذه النظرية خدمة للإعجاز القرآني ،والدليل على أن الجاحظ لم يكن من أولئك الذين فضلوا اللفظ عن المعنى ،أن عبد القاهر الجرجاني فيما بعد استفاد من نظرية الجاحظ السالفة الذكر ،و استطاع أن يصل إلى ما أراده الجاحظ،و ارتكز عليها في نظرية النظم .

من ثمة يمكن القول: إنه ليس من السهولة بمكان أن يغيب هذا الأمر عن الجاحظ وينحدر هذا المنحدر ،فالرجل واع بما يقول ،بصير بما يدور حوله.

أما أبو هلال العسكري، فيقف من ثنائية اللفظ والمعنى، موقف المناصر للفظ على حساب المعنى، فيقول:" المعاني مشتركة بين العقلاء فربما وقع المعنى الجيد للسوقي، والنبطي، والزنجي ...و إنما يتفاضل الناس في الألفاظ ورصفها وتأليفهم ونظمها"[23]

ومن خلال ما يذهب إليه أبو هلال العسكري في مقولته عن أنه ينتصر للفظ على حساب المعنى، ويرى أن المفاضلة الحقة للفظ، لأن المعاني قد تقع لجميع الناس، فهي مشاع بينهم.

و إذا ما عرجنا على المرزوقي ألفيناه ينتصر للمعنى ويفضله على اللفظ حيث يقول:" والشعر مبني على أوزان مقررة، وحدوده مقسمة، قواف يساق ما قبلها إليها مهيأة، وعلى أن يقوم كل بيت بنفسه غير مفتقر إلى غيره إلا ما يكون مضمنا بأخيه، وهو عيب فيه...و وجب أن يكون الفضل في أكثر الأحوال في المعنى"[24]

مما تقدم يمكن القول: إن ثنائية اللفظ والمعنى من القضايا التي ذهب الدارسون تجاهها سبلا و طرائق متباينة و متعددة، إلا أنه يمكن الوصول إلى حقيقة تبدو أكثر واقعية و منطقية، وهي الجمع بين اللفظ والمعنى إذ لا يمكن أن يقوم المعنى بمفرده،ولا اللفظ بمفرده ،وإنما الاثنان متلازمان و صدق ابن طباطبا العلوي حين أعرب عن رأيه في هذه القضية ،فقال :" وللمعاني ألفاظ تشاكلها فتحسن فيها و تقبح في غيرها ،فهي لها كالمعرض للجارية الحسناء التي تزداد حسنا في بعض المعارض دون بعض..."[25]

فما موقف المبرد من ثنائية اللفظ والمعنى ؟وما الجديد عنده؟

قال المبرد في معرض حديثه عن ثنائية اللفظ والمعنى ما نصه :" وليس هذا الحديث من باب الذي ذكرنا ،ولكن نذكر الشيء بالشيء،إما لاجتماعهما في لفظ،و إما لاشتراكهما في معنى "[26]

ومن هنا يبدو أن المبرد ينظر إلى قضية اللفظ والمعنى، نظرة توفيقية و يرى أن اللفظ و المعنى وجهان لعملة واحدة، فهو لا ينتصر للفظ، ولا ينتصر للمعنى، وإنما يراهما متكاملين. ثم يقول:" ومما يستحسن إنشاده من الشعر لصحة معناه، وجزالة لفظه وكثرة تردد ضربه من المعاني بين الناس قول ابن ميادة لرياح بن عثمان:

أمرتك يا رياح بأمر حزم * فقلت هشيمة من أهل نجد

نهيتك عن رجال من قريش * على محبوكة الأصلاب جرد

ووجدا ما وجدت على رياح * وما أعنيت شيئا غير وجدي [27]

وقال المبرد :"ومما يستحسن لفظه ،ويستغرب معناه ،ويحمد اختصاره قول أعرابي بني كلاب :

فمن يك لم يغرض* فإنني وناقتي * بحجر إلى أهل الحمى غرضان

تحن فتبدي ما بها من صبابة * وأخفي الذي لولا الأسى لقضاني [28]

وقال أبو العباس المبرد موضحا نظرته إلى قضية اللفظ والمعنى ما نصه :"...وقد يضطر الشاعر المفلق* ،والخطيب المصقع* ،والكاتب البليغ ،فيقع في كلام أحدهم المعنى المستغلق ،واللفظ المستكره "[29]

ومن هنا يتبين أن المبرد في نظرته لثنائية اللفظ والمعنى ،كان يصـــدر عن روح موضوعية ،تتم عـــن معرفـــة دقيقة بطرائق التعبير، والأداء اللغوي ،وإلــمام بالشعر و أصوله ،ومن ثمة لم ينتصر للفظ ،ولا للمعنى ،وإنمـــا قـــال بالنظرة التوفــيقية بين اللفظ والمعنى.

ب - الشعــر و الخطابـــة : لاشك و أن العصر الذي عاش فيه المبرد كان عصرا ترعـــرع فيـــه الفكـــر والمـــذهب الاعتزالي الذي كان من سماته تغليب العقل و التفكيـــر المنطقي على الجانب العاطفي ، و بما أن الاعتزال يعتمد علـــى الجدل و المحاججة قصد الإقناع و التأثير من جهة ، و يرون أن الصدق في الشعر أصلح ، لأنـــه مقبول لدى العقـــل ، و أن الثقافة العربية ديوانها الشعر من جهة أخرى، و من ثمـــــة فأصـــــحاب المذهب الاعتزالي لم يجدوا مانعـــا أن يجعلوا من الشعـــر وسيلـــة من وسائـــــل الإقـــناع و المحاججة ، و من ثمة عملوا على تحـــــويله إلى شكل خطابي لتقريب المسافة بينه و بين النثر ، و كثيرا ما أثنى المعـــتزلة على قصيدة " عبيد بن الأبرص " ، و قالوا : " الأجدر أن تسمى خطبة بليغة "[30]

و بهذه النظرة حاول الاتجاه الاعتزالي محو الفوارق الفاصـــلة بين الشعر و الخطابة ، و وضعوا مقاييس عامة تصلح للشعر مثلما تصلح للخطابة .

والمبرد ليس بدعا في النقاد ، فهو أيضا من أولئك الذين قالوا : بالمزج بين الشعر و الخطابة ، و تجلى ذلك من خلال حديثه عن السرقة و الأخذ ، حيث أشار إلى أخذ الشعر المعاني النثرية ، و من ثمة عمـــل علـــى رد المعـــاني الشعـــرية الىجذور من النثر ، و عن ذلك أيضا أثناء حديثه عن الاستعانة ، فيقول: " الاســـتعانة أن يدخل في الكلام ما لا حاجة بالمستمع إليه ،ليصحح نظما أو وزنا إن كان في الشعر ، و ليتذكر به ما بعده إن كان فـــي كـــلام منثـــور ،كنحو ما تسمعه في كثير من كلام العامة مثل قولهم :ألست تسمع ؟ أفهمت ؟أين أنت ؟و ما أشبه هذا "[31]

ثم يسترسل موضحا وضعية العي فيقول :" و ربما تشاغل العي بفـــــتل إصبعه ، و مس لحيته ،وغير ذلـــك من بدنه ،و ربما تنحنح "[32]

و قد قال الشاعر يعيب بعض الخطباء في شعره :

ملي ببهر *و التفات و سعلة * ومسحة عثنون و فتل الأصابع [33]

ومن هنا يبدو أن المبرد تمثل قواعد الخطابة أكثر من تمثله لمبادئ نقـــد الشعر . و عمد إلى المزج بين الفنين ،ودعا إلى ضرورة المراوحة بين المعـــاني الشعرية و المعاني الخطابية ،فاســـتعمال الإقناعـــات – وهـــي ألصـــق بالخطابة – في الأقاويل الشعرية التي قوامها التخيل. ومن ثمة جاز لكليهما أن يستعمل تيسيرا فيما تتقوم به الأخرى،لأن الهدف في الفنين واحد." و هو إعمال الحيلة في إلـــــقاء الكلام من النفوس بمحل القبول فتتأثر لمقتضاه "[34]

و الشعر الذي يراوح بين المعاني أفـــضل من غيره ،و كذاك الخطبة أيضا و إلا كانت ثقيلة على النفس مرهقـــة للسمع .

إذ " ويجب أن تكون الأقاويل غاية في الإقناع و التأثير ،فضلا عن خدمة الأقاويل المخيلة في القصيدة "[35]

د -السرقـــات الأدبيـــة : لا شك أن قضية السرقات الأدبية من القضايا الشائكة التي غصت بها كتـــب الأدب العربـــي قديما و حديثا ، و تمثل ركيزة من الركائز النقد العربي القديم . و تعـــــد قضية السرقات امتدادا لقضية أخرى عرفـــت بالخصومة بين القدامى و المحدثين ، حيث تعصب القدامى للشعر القديم و نظرية عمود الشعر ، و الطريقة المتبعـــة و المألوفة التي كانت تبنى عليها القصيدة القديمة ، و اعتبر القدامى الخـــروج عن هذا النسق إخلالا بنظرية عمود الشـــعر ، و مخالفة لسنن القدماء ، و انحرافا خطيرا عن نهجهم و شرعتهم . فنشبت معركة ضارية بين القديم و التيار الجديـــد لا لشيء إلا لأن المجددين جدد وافي طرائق الإبداع الشعري و خالفوا نهـــج القصيدة العربية القديمة ،و غـــالوا فـــي

البديع و الابتكار و التجديد . و لــكن هذا الأمر طبيعي جدا ، لأن سنة الحياة تفرض التجديد و الابتكار في كل عصــر و زمان ؛ لأن كل عصر له خصائصه و ميزاته ،و ليس بدعا أن يذهب المحدثون مذاهب جديدة في الإبداع و الإجادة ، لأن العملية الإبداعية ليست قوالب جامدة متفق عليها ، وإنما لكل زمن قوالبه ، و لكل جيل طرائقه ، وعلى ضــوء مــا سبق يمكن طرح الإشكالات الآتية :

1- ما هي أهم الآراء في ظاهرة السرقة ؟

2- ما موقف المبرد من ظاهرة السرقة ؟

3- ما الجديد عند المبرد في هذه الظاهرة ؟

4- ما الغاية من الحديث عن ظاهرة السرقة ؟

يرى الجاحظ أن تأثر الشعراء المحدثين بالقدماء ضرورة حتمية ، و لا مناص للمحدث إلا أن يسير علــى نهــج القدماء محاكيا و بعد ينتقل إلى سلــم الإبداع و التجديد؛لأنه لا شيء من لا شيء ، و لابد للاحق أن يؤســس إبداعــه بادئ ذي بدء على معارف و طرائق السابقين.

يقول الجاحظ موضحا رأيه في قضية السرقات الشعرية : و " لا يعلم في الأرض شاعر تقدم في تشبيه مصيب ، أو في معنى غريب عجيب، أو في معنى شــــريف كريم ، أو في بديع مخترع ، إلا و كل من جاء من الشعراء مــن بعده ، أو معه إن هو لم يعد على لفظه فيسرق بعضه ،أو يدعيه بأسره " . ([36])

فالجاحظ – هاهنا – لا ينكر على الشعراء الاستعانة ببعض المعاني من بعــض ، وإنما يعيب علــيهم الإغــارة على اللفظ أو أخذه برمته ،ومن ثم يعمد الجــاحظ إلى مصطلحين اثنين و هما :

أ – الأخذ .

ب – السرقة .

و الجاحظ لم يتشعب في إيجاد المصطلحات كما فعل الذين جاؤوا من بــــعده ، فتراهم يتفننــون فــي وضــع المصطلحات المتنوعة و المتباينة في هــذا الباب ؛ فقالوا :"بالسلخ ، و المسخ ، و الإغارة ، و الهدم ، و الاغــتصاب ، و الأخذ و السرقة" و غيرها كثير .

ولعل خير من فصل القول في هذا الموضوع أبو هلال العسكــري ، فتراه يكشف عن موقفــه مــن الســرقات الشعرية فيقول : " إن من أخذ معنى بلفظه كان له سارقا ، و من أخذه ببعض لفظه كان له سالخا ، و من أخذه فكســاه لفظا من عنده أجود من لفظه كان هو أولى به ممن تقدمه " [37]

و يتفق ابن طباطبا العلوي مع أبي هلال العسكري في أخذ المعنى و إضافة معنى جديد مبتكر يفــوق المعنــى المأخوذ.

يقول ابن طباطبا : "وإذا تناول الشاعر المعاني التي قد ســبق إليها فأبرزها في أحسن من الكسوة التي عليها لم يعب ، وجب له لطفه و إحسانه " [38]

كقول أبي نواس :

وإن جرت الألفاظ منا بمدحة * لغيرك إنسانا فأنت الذي نعني .

أخذه من الأحوص حيث يقول :

متى ما أقول في آخر الدهر مدحة * فما هي إلا لابن ليلى المكرم [39]

ومنه يتبين أن ابن طباطبا يعتبر الشاعر مبدعا مبتكرا إذا أخذ معاني غيره، و ألبسها حللا قشيبة، و أضاف إليها من بنات أفكــاره، و ما جادت به قريحتــه.

أما الجرجاني صاحب الوساطة فيرى أن موضوع السرقة من الموضوعات الشائكة لا ينفذ إليه إلا الناقد البصير المتمرس بالشعر و فنونه و طرائقه، كما أنه يعد السرقة داء قديما و عيبا عتيقا، و في هذا السياق يقول:" و السـرق – أيدك الله – داء قديم و عيب عتيق، و مازال الشاعر يستعين بخاطر الآخر و يستمد من قريحته، و يعتمد على معنـاه و لفظه "[40]

و من هنا يتجلى بوضوح أن السرقة قضية حتمية لامناص منها، و قـدر محتوم على كل متأخر، لأن المتقدمين سبقوا إلى المعاني.في نظـر القاضي الجـرجاني.

أما حازم القرطاجني فقد اختلفت نظرته على جميع النقاء الذيـن جـاؤوا قبله، أو عاصـروه فـي موضـوع السرقة؛ فهولا يستحسن السرقة بكل أنواعها و ضروبها، فهو يراها قبيحة، و لا يجدر بالأديب الوقوع فيها، و من ثمة قال: " و السرقة كلها معيبة، و إن كان بعضها أشد قبحا من بعض " [41] و هنـاك مـن أراد أن يلطـف مـن حـدة المصطلح، فقال بالتوارد، أو ما اصطلح عليه بتوارد الخواطر، أو وقع الحافـر على الحافر، و لما سئل المتنبـي عـن السرق فأجاب قائلا:" الشعر جادة، وربما وقع الحافر على موضع الحافر" [42]

لكن ابن حزم الأندلسي له رأي في قضية توارد الخواطر تجـلى في أن الموارد‌ة نادرة الوقوع، و قلمـا يتفـق لشاعرين التوارد في أكثر من نصـف بيت وفي هذا السياق يقول: "لم نكد نشاهد اتفاق الخواطر على الكلمات اليسيرة و الكلمتين و نحو ذلك، والذي شهدنا اتفاق شاعرين في نصف بيت شهـدنا ذلك مرتين من عمرنا فقط "[43]

بل يذهب إلى أكثر من ذلك فيقول: " و الذي ذكره المتكلمون في الأشـعار من الفصل الذي سـموه المـواردة وذكروا خواطر شعراء اتفقت في عدة أبيات، فأحاديث مفتعلة لا تصح أصلا ولا تتصل، و ما هي إلا سرقات و غارات من بعض الشعراء على بعض " [44]

أما ابن رشيق القيرواني يرى أن أهل العلم أجمعوا على أن السرقة لا تقع إلا في البديع النادر، و في ذلك يقول: " إن أهل التحصيل مجمعون على أن السرقة إنما تقع في البديع النادر، و الخارج عن العادة، و ذلك في العبارات التـي هي الألفاظ " [45]

و هذه – و لاشك – آراء بعض الدارسين حول ظاهرة السرقة في الشعر العربي.

فما رأي المبرد في السرقة ؟

وما الجديد عنده ؟

المبرد ليس بدعا في النقاد، فهو كغيره تناول قضية السرقات الأدبيـة أدلى بدلوه فيها، فركز على مصـطلحين اثنين هما:

أ – السرقـة.

ب – الأخـذ.

و إن كان استخدامه المصطلح الآخذ هو مدار الدراسة عنده إلى جانب الإشارة إلى مصطلح السرقة الخفية، وكذا مصطلح النظير.

والمبرد في تناوله لظاهرة السرقة كان مقلدا وسائرا على نهج أسـتاذه الجاحظ خاصة حين قال بالأخـذ (أخـذ المعنى) .. و لكنه من جهة أخرى كان مجددا حين قال بالسرقة بين الشعر و النثر، لأن اغلب الذين سبقوه أو عاصروه قالوا: بالسرقة بين الشعر و الشعر فقط.

بالنسبة لمصطلح النظير يستدل فيقول بشار بن برد:

فقل لأبي يحي متى تدرك العلى * وفي كل معروف عليك يمين[46]

قال أبو العباس المبرد: نظير قوله: " و في كل معروف عليك يمين "
قول جرير :

ولا خير في مال عليه ألية * ولا في يمين عقدت بالمآثم[47]

أما في معرض حديثه عن السرقة الخفية ألفيناه يركز على أبي العتاهية الـــذي اشتهر بالسرق الخفي في شعره ، و في ذلك قال المبرد : " و كان إســماعـيل ابن القاسم لا يكاد يخلي شعره مما يتقدم من الأخبار و آثار فينــظم ذلك الكــلام المنثور ،و يتناوله أقرب متناول و يسرقه أخفى سرقة " [48]
ومحل الشاهد – هاهنا – في قوله : " و يسرقه أخفى سرقة " .
وفيه أيضا إشارة إلى السرقة بين الشعر و المنثور.
يقول المبرد : ففي قوله :

وكانت في حياتك عظات * و أنت اليوم أوعظ منك حيا [49]

" وأنت اليوم أوعظ منك حيا".
إنما أخذه من قول الموبذ لقباذ الملك حيث مات ،فإنه قال في ذلك الــوقت :" كان الملك أمس أنطق منه اليوم ،و هو اليوم أوعظ منه أمس" .
و أخذ قوله :

قد لعمري حكيت لي غصص المو* ت و حركتني لها و سكنتا

من قول نادب الإسكندر ،فإنه لما مات بكى من بحضرته فقال نادبه:
حركنا بسكونه .
و قول إسماعيل بن القاسم أبو العتاهية :

يا عجبا للناس لو فكروا* و حاسبوا أنفسهم أبصروا

فمأخوذ من قولهم :الفكرة مرآة تريك حسنك من قبيحك .
و قوله :

الخير مما ليس يخفى هو ال *معروف و الشر هو المنكر

مأخوذ من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص :قال :قال رســول الله صــلى الله عليه وسلم :"**يا عبد الله كيف بك إذا بقيت في حثالة من الناس مرجت عــهودهم وأماناتهم ، و صار الناس هكذا، وشبك بــين أصــابعه ،فقلــت :مــرني يا رسول الله فقال :"خذ ما عرفت ،و دع ما أنكرت ،وعليك بخويصة نفسك ،و إياك وعوامها** "[50]
وقوله :

ما بال من أوله نطفة * و جيفة آخره يفخر

مأخوذ من قول علي بن أبي طالب (ض) **:" وما ابن أدم و الفخر ،و إنما أولــــه نطفة و آخره جيفة لا يرزق نفسه ، ولا يدفع حتفه** "[51]

إلى جانب هذا يعلق على بيت لأبي تمام أخـــذه عن أبيات لأبي عيينة ،أجاد فيـــه أبو تمام و تجلى فيه حذقه و إيجازه و روعته.

قال أبو عيينة:

الخير مما ليس يخفى هو ال *معروف و الشر هو المنكر

فأخذ هذا المعنى حبيب بن أوس الطائي و جمعه في ألفاظ يسيرة فقال :

عمري لقد نصح الزمان و إنه * لمن العجائب ناصح لا يشفق.

فزاد بقوله " ناصح لا يشفق" على قول ابن أبي عيـــيـــنه شيئا طريفا ،وهكذا يفعل الحاذق بالكلام [52] و الأمثلة في هذا الباب كثيرة وحسبنا منها هذا التمثيل.

و الخلاصة ، إن المبرد في تناوله لظاهرة السرقـــات كان مقلدا و مجددا ،فالتقليد برز في قوله في الأخـــذ بالمعـــاني ، وهذا رأي أستاذه الجاحظ،ومعاصره ابن قتيبة ، أما وجه الجدة فقوله بالأخذ بين الشعر والنثر خلاف ما ذهب إليه الذين سبقوه ، أو معاصروه الذين اكتفوا بالأخذ بين الشعر و الشعر فقط.

و ما الغاية من الحديث عن السرقات ؟

إن الغاية من دراسة النقاد لقضية السرقات الأدبية و اصطلاحهم على هذا المصطلح ،لم يكن سبهللا ، وإنما جاء من أجل صيانة النص من التحريف و التصحيف خوفا أن ينسب القول إلى غــير قائله ، فيضيع ،هذا من جهـــة ، و السرقة صفة مخالفة للفضيلة ،وللخلق الرفيع ،لأن من جبلة الإنسان لا يقبل أن يسرق متاعه أو حاجاتـــه ،أو ممتلكاتـــه ،فما بالك أن تسرق بنات أفكاره ، وزهرات إبداعه .

فالأمر عند هذا أنكى ،وأدهى وأمر ،وفي هذا السياق أشار بدوي طـــبانة مبينا فضاعة السرقة ،إذ يقـــول :" قـــد أشار الحريري إلى عظم فعل الســـرقـــة في المسروق إذا كان حيا بقوله في إحدى مقاماته : " واستراق الشـــعر عنـــد الشعراء أفضع من سرقة البيضاء و الصفراء وغيرتهم على بنات الأفكار ،كغيرتهم على البنات الأبكار"[53]

والمبرد كانت له في - الكامل - خطرات نقدية قيمـــة مفيدة أسهمت في بناء جوانب من الحركة النقدية , علـــى الرغم من نقوده الجزئية , إلا أنه شارك مشاركة فعالة في إثراء أهم القضايا النقدية التي كانت في عصره ؛ كقضـــية :(القديم والحديث, وثنائية اللفظ والمعنى , والسرقات الأدبية , وموقـــــفه من الشعر والخطابة)، وغيرها .

والمبرد كانت له في - الكامل - خطرات نقدية قيمـــة مفيدة أسهمت في بناء جوانب من الحركة النقدية , علـــى الرغم من نقوده الجزئية , إلا أنه شارك مشاركة فعالة في إثراء أهم القضايا النقدية التي كانت في عصره ؛ كقضـــية (القديم والحديث, وثنائية اللفظ والمعنى , والسرقات الأدبية ، وموقـــــفه من الشعر والخطابة)، وغيرها .

الخاتمة

وبعد ، فيمكن أن نحوصل من هذه الدراسة لفيفا من النتائج نوردها كالآتي:

1- أسفرت الدراسة على أن كتاب الكامل في اللغة والأدب ليس موسوعة لغوية وأدبية فحسب ، بل موســـوعة نقديـــة بامتياز أسهمت في إثراء الدرس النقدي.

2- بينت الدراسة أن المبرد شارك نقاد عصره جميع قضايا الدرس النقدي العربي القديم ، وكانت لـــه فيهـــا صـــولات وجولات نمت على حسه النقدي الرفيع.

3- أظهرت الدراسة موقف المبرد من الخصومة بين القديم والحديث في أن المفاضلة في الشعر لا تقوم علـــى أســـاس القدمة أو الجدة ، وإنما تقوم على أسس الجودة الفنية في القصيدة الشعرية.

4- أوضحت الدراسة موقف المبرد من ثنائية اللفظ والمعنى على أنهما وجهان لعملة واحدة ، وهمـــا متكـــاملان ، ولا يستوي الإبداع إلا بهما معا.ومن ثمة نظر نظرة توفيقية.

5- أبرزت الدراسة موقفه من الشعر والخطابة ، فهو يدعو إلى المزاوجة بين المعاني الشعرية والمعاني الخطابية ، لأن استعمال الإقناع ألصق بالخطابة من الأقاويل الشعرية التي قوامها التخيل ، لأن الغاية في الفنيين واحدة وهي التأثير في النفوس.

6- كشفت الدراسة باب السرقات أن المبرد أبان عن السرقة في المنثور ، وهو بهذا حاز قصب ، لأن مـــن ســـبقه أو عاصره اكتفى بالسرقات في الشعر . ومن ثم نجد المبرد وسع في باب السرقات لتصير بدلا من السرقات الشـــعرية سرقات أدبية.

المصادر و المراجع :

الآمدي ، الموازنة بين الطائيين (أبي تمام والبحتري)، تح ،محمد محي الدين عبد الحميد ،دار المسيرة ، ب ط ،د ت ،ج 1

ابن حزم ، الإحكام في أصول الأحكام ،منشورات دار الأفاق الجديدة ، بيروت ،لبنان ، ت ح إحسان عباس مـــج 1 ،ط 2، 1983

ابن خلدون ، المقدمة، دار العودة بيروت لبنان ، (ب ط) (د ت)

ابن طباطبا العلوي ، عيار الشعر دار الكتب العلمية ، ت ح ، عباس عبد الساتر ط1 ، 1982

ابن قتيبة الدينوري ، الشعر و الشعراء، دار الثقافة بيروت لبنان ، (ب ط)، (د ت)،(د،تح)

أبو نواس ، الديوان ،دار بيروت للطباعة و النشر ،(ب ط)،1978 م

الجاحظ ، عمر بن بحر ، البيان والتبيين ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، (د ط)، (د ت)، (د،تح)، ج1،3،2

البيان والتبيين ،مكتبة الخانجي القاهرة ، الجزء الأول تح عبد السلام هارون ،ط3 1968

الحيوان،منشورات دار مكتبة الهلال ، بيروت لبنان ،تح .ن. د. يحي الشامي مج1 ، 2، 3،ط3 ،1990

الجاحظ ، عمر بن بحر، الحيوان ،البابي الحلبي ،القاهرة ،(تح)،د.عبد السلام هارون ، ط مج3 ،1938

الحيوان ،دار إحياء العلوم، بيروت(ب.ط)،مج1 ،1955.

الجرجاني ، عبد العزيز القاضي ، الوساطة بين المتنبي و خصومه ، دار إحياء الكتب العربية ، ت ح ،علي البجاوي و أبـــو الفضل إبراهيم ، ب ط ،1951

جودت فخر الدين ، شكل القصيدة العربية في النقد العربي حتى القرن الثامن الهجري ،دار الآداب بيروت ،ط1 ، 1984

حازم القرطاجني ، منهاج البلغاء و سراج الأدباء ، دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان ،تح ،محمـــد الحبيـــب بـــن خوجـــة ،ط3،1981

طه حسين ، من تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي الأول) دار العلم للملايين بيروت لبنان،ج2 ،ط4 1982

العسكري ، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل ، الصناعتين الكتابة و الشعر ،دار الكتب العلمية بيروت لبنان ، تح ،د مفيد قميحة ،ط 1 ، 1981

المبـــــــرد ، أبو العباس محمد بن يزيد الأزدي الثمالي ، الكامل في اللغة والأدب ،مج1،دار الكتب العلمية ، بيروت لبنـــان ،تح د.عبد الحميد هنداوي،مج 1 ،2 ،3 ،4 ،ط 1 ،1999

الكامل ، دار الفكر ،مج1 ،2، 3،(ب تح)،(ب ط)،(ب ت)،

محمد رضوان الداية ، تاريخ النقد الأدبي في الأندلس ، مؤسسة الرسالة ، ط2 ، 1981

المرزباني ، عبد الله محمد بن عمران ، الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء في عدة أنواع صناعة الشعر, دار النهضـــة مصر (تح) علي محمد البجاوي

ياقوت الحموي ، معجم الأدباء ،دار الغرب الإسلامي ، ج6،بيروت ط1، 1993، (د تح)

الإحالات والهوامش

1- ابن خلدون ، المقدمة ، ج 1، ص 460

[2]- عبد العزيز عتيق ،تاريخ النقد الأدبي عند العرب ،ص 304 ،305

[3]- المرجع نفسه،ص 273

[4]- ابن قتيبة عبد الله،الشعر و الشعراء ،دار الثقافة بيروت لبنان ،(ب ط)،(د ت)،ج1،ص11

[5]-عبد العزيز عتيق ،تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، ص 308

[6]- ينظر المرزباني ،الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء ،في عدة أنواع صناعة الشعر،دار النهضة مصر (ت ح) ،علي محمد البجاوي ،(ب ط) ،1965،ص 384

[7]- م . نفسه،ص 384.

[8]- عبد العزيز عتيق ،تاريخ النقد الأدبي عند العرب ،ص 305

[9]- أبو نواس : الديوان ،دار بيروت للطباعة والنشر (ب ط) ،1978 ، ص 181

[10]-الجاحظ ،الحيوان،مج2،ص 228

[11]- ابن قتيبة ،الشعر والشعراء ج1،ص10

[12]- المرجع نفسه ،ج1،ص10

[13]- م .نفسه ،ج1،ص10

[14]- المبرد ،الكامل ،مج1،ص79

* نخيلة :خلاصة الود
* التخشين :إيغار الصدر
* العريكة : الطبيعة
* مريرها : تستحكم
* النطفة : الماء القليل الصافي

[15]-م . نفسه ،مج1،ص79.

[16]- م . نفسه ،مج1،ص79

[17]- ابن قتيبة ،الشعر والشعراء ،ج1،ص10

[18]- م . نفسه، ،ج1،ص22

[19]-طه حسين ،من تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الأول ،دار العلم للملايين ،بيروت لبنان ، ط4 ،1984،ج2، ص 111

[20]- طه حسين ،من تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الأول ، ج2، ص113

[21]- ياقوت الحموي ،معجم الأدباء إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ،طبعة القاهرة ،(ب ط).(د ت)،ج 16، ص 78

[22]- الجاحظ ،الحيوان ،البابي الحلبي ،القاهرة ،ت ح ،عبد السلام هارون ،ط1، 1938،مج3،ص131، 132

[23]- أبو هلال العسكري، الصناعتين الكتابة والشعر، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ت ح.د مفيد قميحه، ط1، 1981، ص217

[24]- د جودت فخر الدين، شكل القصيدة العربية في النقد العربي حتى القرن الثامن الهجري، دار الآداب، بيروت، ط1، 1984، ص46، نقلا عن المرزوقي، شرح ديوان الخامسة، نشره أحمد أمين وعبد السلام هارون، مطبعة لجنة التأليف والنشر و الترجمة، ط1، ج1، ص18

[25]- ابن طبا طبا ،عيار الشعر ،دار الكتب العلمية ،ت ح عباس عبد الستار ،ط1 ،1982،ص14

[26]- الكامل، مج2، ص293.

[27]-الكامل ،مج1،ص95

[28]- م نفسه ،مج1،ص81 ،82

*-لم يغرض:لم يشتق ،ينظر، م نفسه ، مج1، ص83
[29]- م نفسه ،مج1،ص77
*- المفلق :المجيد،ينظر، م نفسه ،مج1،ص77
*- المصقع :البليغ ،ينظر، م نفسه ،مج1،ص77
[30]-حسان عباس ،تاريخ النقد الأدبي عند العرب ،ص 17
[31]- الكامل ،مج1،ص80
[32]- م نقسه ،مج1،ص80
[33]- م نفسه ،مج 1،ص 80
*- البهر = تتابع النفس ،ينظر م نفسه ،مج 1،ص80
[34]- حازم القرطاجني ،منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، تونس ،ت ح ، محمد الحبيب بن الخوجة ،(ب ط)،(د ت) ، ص 361
[35]- ينظر محمد رضوان الداية ،تاريخ النقد الأدبي في الأندلس ،ص 532.
[36]-الجاحظ ، الحيوان ، دار إحياء العلوم بيروت ، (ب ط) ، 1955 ن مج 1 ص 645 .
[37]-أبو هلال العسكري ، الصناعتين ،، ص 218
[38]-ابن طباطبا ، عيار الشعر ، ص 79.
[39]- م نفسه ، ص 79
[40]- الجرجاني ، الوساطة ، بين المتنبي و خصومه ،دار إحياء الكتب العربية ،ت ح البجاوي و أبي الفضل إبراهيم دار إحياء الكتب العربية (ب ط) 1951 ، ص 215 .
[41]حازم القرطاجني ، منهاج البلغاء و سراج الأدباء ، ، ت ح محمد الحبيب ابن خوجة ، دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان ط 3 ، 1981 ، ص 196 .
[42]-بدوي طبانة ، السرقات الأدبية ، المطبعة الفنية المكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ط 2 ، 1969 ، ص
[43]- ابن حزم ، الإحكام في أصول الأحكام ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت لبنان ، ت ح ، إحسان عباس ، ط 2 ، 1983 مج 1 ، ص 108 .
[44]- ابن حزم ، الإحكام في أصول الأحكام ، مج 1 ، ص 108 .
[45]- الآمدي ، الموازنة بين الطائيين ،ج 1 ، ص 55 .
[46]- الكامل ، مج 2 ، ص 22 .
[47]- الكامل ، مج 2 ، ص 22 .
[48]-م نفسه ، مج 2 ، ص 32 .
[49]-م نفسه ، مج 2 ، ص 32 .
[50]-م نفسه ،مج2،ص34.
[51]-الكامل ،مج2،ص36
[52]- م نفسه ،مج2،ص36.
[53]- بدوي طبانة ،السرقات الأدبية ،ص،39.